النبوة المحمدية

دلائلها وخصائصها

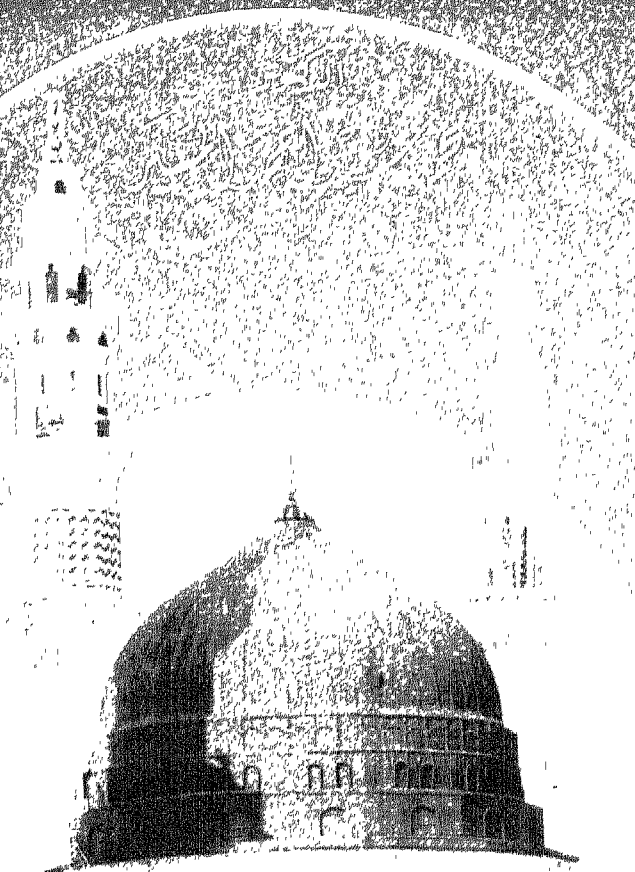

دار الاعتصام

اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد سيد أحمد المسير

القاهرة

النبوة المحمدية
دلائلها وخصائصها

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

دار الاعتصام

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص : ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد.

فيسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذه الطبعة الثالثة من كتاب «الرسول والوحى» فى دراسة موضوعية تعتمد التحليل العقلى والفهم الصافى لمعالم السيرة النبوية فى جانب مهم يتصل اتصالا وثيقاً، ويرتبط ارتباطاً جوهرياً بعقيدة المسلم..

وقد قمنا فى هذه الطبعة الجديدة بحذف بعض البحوث وإضافة بحوث أخرى، كما أعدنا ترتيب الأبواب حتى تجمع بين العقيدة والسيرة جمعا يصحح للإنسان عقيدته ويتسامى به إلى علياء الخلق العظيم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.، ولذا فقد آثرنا عنوانا جديدا هو «النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها»

وجاءت أبواب الكتاب على النحو التالى:

الباب الأول: ملامح الشخصية المحمدية:

ويتضمن ستة مباحث:

الأول: اليتيم:

لقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم يتيما فآواه الله.. وإن حكمة بالغة تشد عقل الإنسان هنا إلى آفاق عليا من التأمل.. فالأسباب المادية التى تعارف الناس عليها ليست هى كل شىء، ووراء كل ظاهرة فى الطبيعة والإنسان تدبير إلهى محكم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو اليتيم الذى كفله أكثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت، فما وُجد فيه عيب، ولا عُرف عنه مطعن، وإنما كان الطاهر النزيه والعفيف الزاكى.

وقد أشار البحث إلى إرهاصات المولد الشريف، وأكد أن لدينا من الحق والصدق ما يباعد بيننا وبين قصص الوضاعين..

الثانى: راعى الغنم:

لعل لله حكمة فى رعى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للغنم فى شبابه، فهو يكسب صاحبه يقظة، حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاق، مثابراً على الهدف.. ويدَع للراعى فرصة التأمل فى مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس الراعى فى امتداد الصحراء.

وعاش محمد صلى الله عليه وسلم بعيداً عن زخرف الحياة، فلم يسْعَ إلى شهرة، ولم يعبأ بمادة، وكان قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع، ويتعالى فوق كل إغراء..

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً فى هذا التاريخ، فإسماعيل وقصة الفداء، وموسى وعصاه، وامرأتا مدين، وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث..

لقد كان للرعى دور أساسى فى التاريخ الإنسانى، ولا زال للأغنام ارتباطها الوثيق بحياة البشر.

الثالث: الصادق الأمين:

لقد كان الصدق والأمانة هما العَلَمَ المرفوع من أعلام النبوَّة فى يومها الأول حين قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقىَّ؟).

قال الناس يومئذ: ما جربنا عليك كذبًا..!

والمنطق السليم يقول: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!

لقد شارك محمد صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود، وارتضاه القوم حكماً بينهم وقالوا: هذا الأمين، رضينا..!!

وشهد محمد صلى الله عليه وسلم فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، لنصرة المظلوم ومؤازرة الحق، وقال: (ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت).!!

وتحنَّث محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء، تأملاً وفكراً، وانقطاعاً وخلوة، وصلة وبرًّا..

كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

الرابع: الأمى:

إن حكمة إلهية كبرى تكمن فى أن هذا الوصف ملاحظ فى صدق الرسالة وحقيقة الوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسِّيّة ترتبط بشخصية رسولها ووقت ظهورها ولا تُعلم إلا لمن شاهدها أو نُقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهى معجزة عقلية ذاتية، تحمل الدليل معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أمى، وأن القرآن المجيد سجد له البلغاء، وتتلمذ عليه الفلاسفة، وأصلح شئون الحياة كلها ـ يزداد عمق إيمانه ويقينه بأن محمدا رسول الله..

وكل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه صلى الله عليه وسلم ما توقع رسالة ووحيا، ولا أعد نفسه لزعامة أو سلطان، ولا عُرف عنه الانفعال والثورة..

وعندما يتحمل بعد ذلك رسالة للعالمين لا تكون إلا تكليفا إلهيا..

الخامس: كلمة تنبيه:

إن اليتم والفقر والأمية لا شك أنها ـ فى مجموعها ـ قادحة فى شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها فى نطاق الإعداد للنبوة والاصطفاء للرسالة تضعنا فى نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أمية مدعيا أن الرسول كان كذلك، وإن الفقر الذى ينشأ عن تكاسل أو ترك للسعى مع القدرة عليه هو فقر معصية، يحاسب عليه الإنسان أمام ربه، كما أن الفقر الذى ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضا فقر معصية يُسأل عنه المرء يوم القيامة.

السادس: حديث هرقل:

إن حديث هرقل الروم مع أبى سفيان حين جاءه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام يمثل منهجا صحيحاً فى الاستدلال، فهو قائم على استقراء أحوال النبى صلى الله عليه وسلم، وتتبع أطوار حياته وملامح شخصيته ليتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوة..

الباب الثانى: دلائل النبوة المحمدية:

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: العمق التاريخى لشخصية الرسول:

لسيدنا رسول الله عمق تاريخى يتجلى فى تذكير الله تعالى لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التى يبعث بها النبى العربى والرسول الأمى، باعتبارها الرسالة العامة الخالدة..

والدراسة فى هذا الفصل قائمة على ثلاثة مباحث:

(الأول) ميثاق النبيين:

وهو المشار إليه فى قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»(١).

(الثانى) دعوة إبراهيم:

وهى المشار إليها فى قوله جل شأنه: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»(٢).

(الثالث) بشرى عيسى:

وقد تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل، وملزمة لأهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوَّة الخاتمة تصديقاً لما معهم.

(١) آل عمران ٨١ (٢) البقرة ١٢٩

الفصل الثانى: الواقع المعاصر لنشأة الدعوة:

إن الإنسانية قبيل البعثة المحمدية كانت فى حاجة ماسة، وضرورة ملحة لدعوة الإسلام الخالدة، فلم يتوفر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين فى مذهب أو نحلة أو دين.. وباستقراء الواقع التاريخى لا نجد إلا وثنية مشركة، أو يهودية مادية، أو نصرانية محرفة..

وهذا الفساد العقدى لا ينجم عنه إلا فساد خلقى، فأخلاق الناس على قدر دينهم..

ومن ثم جاءت أبحاث هذا الفصل على جانبين:

١ ـ الدين

٢ ـ الأخلاق

فى الجانب الأول ناقشنا ظهور الوثنية فى جزيرة العرب، وكيف بلغت المهانة الدينية مبلغاً جعل العقل الجاهلى يصنع الصنم فيعبده وانقلبت الحقيقة فأصبح العابد يصنع المعبود..!!

وعرضنا لعقائد المجوس ونظرتهم الى الطبيعية وما وراءها..

وأظهر البحث أن اليهود أعداء الإنسانية، فدينهم لا يمنح سكينة النفس والعقل، وهم يرون عقيدتهم حكرا عليهم، ولا يقبلون أن يتهوّد البشر، ولايرضون للإنسان إلا أن يكون ذليلاً لهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم..

والنصرانية لم تكن بالدين الصحيح الذى جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض ودخلها التحريف ومزقتها الصراعات..

وفى الجانب الثانى: قدمنا تصوراً عاما عن الفساد الخلقى من الواقع الجاهلى فى المنطقة العربية، وعرضنا لأنواع النكاح فى الجاهلية، ووأد البنات، وقانون الغاب الذى ساد فيها..

ولم يكن هذا العرض إلا مثالا لما يجرى فى العالم أجمع، ففى فارس جعل «مزدك» الناس شركاء فى النساء والأموال، وفى الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية

الشاذ، وعلى الصعيد العالمى دارت الحرب سجالا بين الفرس والروم، وشقى الناس بويلاتها..

ولا ينفى هذا أن هناك أضواء خافتة ظهرت فى حياة هؤلاء البشر:

فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح..

ووجد من أحياء الموءودة..

ومنهم من أحب مكارم الأخلاق..

لكن هذه اتجاهات فردية وليست ظواهر اجتماعية عامة، وليس لها من صحة القصد وسلامة الاعتقاد ما يجعلها مذهباً أخلاقيا..

الفصل الثالث: المعجزة الكبرى:

إن المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم هى القرآن المجيد، وبه وقع التحدى للإنس والجن، ومن المقطوع به أن القرآن نزل مفرقا طوال مدة الرسالة وهى ثلاث وعشرون سنة، ومع هذا الانفصال الزمنى فإن القرآن المجيد محكم الأسلوب، قوى الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته، فى انسجام ووحدة وترابط، كأنما نزل جملة واحدة، وماذاك إلا لأنه تنزيل رب العالمين..

وتتعدد وجوه الإعجاز القرآنى، ومنها:

- الإعجاز البيانى.
- الإعجاز العقدى.
- الإعجاز التشريعى.
- الإعجاز العلمى.
- الإخبار بالغيب.

الفصل الرابع: المعجزات الحسية:

لقد وقعت على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوارق للعادات حسية، واجتمع له صلى الله عليه وسلم ما لم يجتمع لنبى قبله، وهذه الخوارق منها ما يدخل تحت المعجزة الاصطلاحية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر، لأن التحدى

وقع بها، ومنها ما يعد تكريما للنبى وتثبيتا للذين آمنوا معه، وذلك كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام القليل، وحنين الجذع وغيرها..

الفصل الخامس: الخلق العظيم:

إن جوانب الأخلاق كثيرة متعددة، ولكل إنسان نصيب منها قلّ أو كثر، لكن أن نجد إنسانا جمع فضائل الأخلاق كلها، وحاز المكارم بأجمعها، والتقى فيه شرف النسب، وجمال النفس والبدن، ومحاسن السلوك، فهذا لا يكون إلا محمداً صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق العظيم.

الباب الثالث: الوحى المحمدى:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: صور الوحى المحمدى:

إن تتبع أحوال الوحى مع الرسول صلى الله عليه وسلم واستقراءها تصل بنا إلى أن صور الوحى المحمدى هى:

١ ـ الرؤيا الصالحة.

٢ ـ لقاء إسرافيل.

٣ ـ صلصلة الجرس.

٤ ـ تشكل الملك فى صورة رجل.

٥ ـ رؤية الملك فى صورته الحقيقية.

٦ ـ المناجاة فى الحضرة الإلهية.

الفصل الثانى: شبهات حول الوحى المحمدى:

إن الدفاع عن الوحى المحمدى هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً، وإن إثبات النبوة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء جميعا، وإيمان بهم بلا تفريق.. وقد ناقشنا أربع شبهات هى:

البشرية ـ السحر ـ الجنون ـ الصرع.

الباب الرابع: خصائص النبوة المحمدية:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: عموم الرسالة:

إن آيات القرآن وأحاديث الرسول قاطعة فى عموم الرسالة المحمدية زمانا ومكانا، فلا تقف عند زمن معين، ولا يحدها مكان خاص، ولا يخاطب بها جنس دون آخر.

وإن اليقين بصدق الرسالة بناء على المعجزة العقلية والمعجزات الحسية وبشائر الأنبياء والخلق العظيم يستلزم صدق ما يصدر عن صاحب الرسالة فيما يبلغ عن ربه عز وجل..

الفصل الثانى: ختم النبوة

انطلاقا من دلائل النبوة وتأكيدا لعموم الرسالة تأتى قضية ختم النبوة لتقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وأن رسالته باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا وحى بشريعة جديدة، ولا نسخ للشريعة الإسلامية، فقد تكامل الدين وتمت النعمة الإلهية على الخلق، ونزل قول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة ـ كلية أصول الدين

القاهرة فى ١٣ من ربيع الأول ١٤٢١هـ

١٦/ ٦/ ٢٠٠٠م

الباب الأول

ملامح الشخصية المحمدية

اليتيم

راعى الغنم

الصادق الأمين

الأمى

كلمة تنبيه

حديث هرقل

اليتيـــم

مـحمـد بن عبـد الله بن عبـد المطلب، الهـاشمى، القـرشى، سلالة الأطهـار، وسليل الكرام.. صلى الله عليه وسلم.

سمى محمداً لكونه جامعا لصفات الخير فيحمده الله والناس..

ولم يجعل الله لهذا الاسم سميًّا إلا قـبيل الميلاد الشريف، لما تسامع الناس أن نبياً يبعثه الله من العرب يسمى محمداً، فكانوا ستة لا سابع لهم، وهم:

* محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى.
* محمد بن مسلمة الأنصارى.
* محمد بن براء البكرى.
* محمد بن سفيان بن مجاشع.
* محمد بن حمران الجعفى.
* محمد بن خزاعى السلمى.

ويعلق القـاضى عـياض قـائلا: (ثم إن الله حـمى كل من يسـمى به أن يدّعى النبوّة أو يدّعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً فى أمره)[1].

وعبد الله هو أصغر ولد أبيه، كان وسيماً، ومات فى ريعان شبابه.

وجده عبده المطلب سيد قومه، ويقال له شيبة الحمد، لكثرة جوده وكرمه، وهو الذى جدّد حفر زمزم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها..

ومحمد الهاشمى، نسبة إلى هاشم بـن عبد مناف، واسمه عمرو، وأطلق عليه (هاشم) لهشمه الثريد مع اللحم لقـومه فى أوقات الشدّة والقحط، وهو أول من سنّ رحلتى الشتاء والصيف.

ويستمر النسب الشريف إلى النضر بن كنانة الجد الثانى عشر ـ وهو قريش.

---

(١) نقلا عن البداية والنهاية لابن كثير ـ ، ج٢ ص ٢٥٩ ط مكتبة المعارف ـ بيروت

وفى اشتقاق هذه الكلمة نجد أنها من القرش بمعنى الكسب والجمع، أو من التقريش بمعنى التفتيش..

فهو الذى وحّد القبيلة بعد تفرّق، وهو الذى كان يبحث عن حاجات الناس فيقضيها لهم..

ويذكر المؤرخون الإجماع فى النسب الشريف على عشرين جداً، هكذا:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان..

ولا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ وما بين عدنان وإسماعيل مختلف فيه، وكان ابن عباس وغيره إذا بلغ عدنان قال: كذب النسّابون..!!

وكره الإمام مالك رفع النسب إلى ما بعد عدنان..

ويُروى عن عروة بن الزبير قوله: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان[1] إلا تخرّصاً.

وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود، وعمرو بن ميمون الأزدى، ومحمد بن كعب القرظى إذا تلوا: «والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله»[2].

قالوا: كذب النسّابون[3]!!.

ويكفى أن نؤمن بالحديث الشريف ـ كما فى صحيح مسلم ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم).

---

(١) قحطان : جد العرب العاربة ، ومهدها بلاد اليمن ، ثم انتشرت فى أنحاء الجزيرة العربية.

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٩.

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٩٤.

وفى مسند الإمام أحمد: قال العباس: بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس.. فصعد المنبر فقال: (من أنا؟!).

قالوا: أنت رسول الله..

قال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.. إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه.. وجعلهم فريقين، فجعلنى فى خير فرقة..وخلق القبائل، فجعلنى فى خير قبيلة.. وجعلهم بيوتاً، فجعلنى فى خيرها بيتاً.. فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً).

وقد وُلد محمد صلى الله عليه وسلم من نكاح، ولم ينله من سفاح الجاهلية شىء، فقد تزوج عبد الله بن عبد المطلب من سيدة بنى زهرة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى..

وبعد أن بنى عبد الله بآمنة خرج فى تجارة إلى الشام، وفى طريق العودة تخلَّف عند أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة لمرض ألمَّ به، فمكث شهراً ثم وافاه الأجل المحتوم بعد حياة لم تزد عن خمس وعشرين سنة.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يُولد محمد دون أن يرى أباه، فأرضعته أمه، كما أرضعته مولاة عمه أبى لهب ثُويبة، ثم استرضع فى بنى سعد من حليمة بنت أبى ذؤيب، وظلّ معها خمس سنوات فى بيت زوجها الحارث بن عبد العزى، فى جوّ الصحراء الطلق يستصفى لغة العرب..

ويذكر الإمام السهيلى الأسباب التى دفعت قريشاً وغيرهم من أشراف العرب إلى استرضاع أولادهم، وهى: تفريغ النساء إلى الأزواج، كما قال عمار بن ياسر لأم سلمة رضى الله عنها، وكان أخاها من الرضاعة ـ حين انتزع من حجرها زينب بنت أبى سلمة قال: دعى هذه المقبوحة المشفوحة [1] التى آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد يكون ذلك منهم أيضاً لينشأ الطفل فى الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية [2]، كما قال عمر رضى الله عنه: تمعددوا، وتمعززوا[3]، واخشوشنوا.

---

(١) المشفوحة : المبعدة.

(٢) نسبة إلى معد وكانوا أهل قوة وشدة.

(٣) اشتدوا.

وحين قال أبو بكر ـ رضى الله عنه : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله؟.

قال صلى الله عليه وسلم: (وما يمنعنى وأنا من قريش، وأرضعت فى بنى سعد).

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات، وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرّ بنا حبُّ الوليد..!!

لأن الوليد كان لحَّاناً، وكان سليمان فصيحاً، لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعرَّبوا ثم أدِّبوا فتأدَّبوا[1].

وعاد محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمه فمكث معها عاماً، ثم خرجا فى زيارة للمدينة، فماتت وهى راجعة به إلى مكة، فكفله بعد ذلك جده عبد المطلب مدة عامين، توفى بعدهما، فانتقل إلى كفالة عمه أبى طالب..

ومن الملاحظات الطريفة ما قيل:

إن فى اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء، فأمه آمنة وقابلته الشفاء[2]..

وفى اسم حاضنته البركة والسخاء فهى أم أيمن..

وفى اسم مرضعته الأولى الثواب فهى ثويبة جارية أبى لهب.

وفى اسم مرضعته المستقلة برضاعه الحلم والسعد فهى حليمة السعدية..!

ولقد صاحب الميلاد الشريف آيات تعد إرهاصاً لما ينتظر هذا الوليد من شأن عظيم..

ويذكر كتَّاب السيرة عن هذه المرحلة من حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مرويات تعقّبها علماء الحديث.

فما يقال من أن مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون حضرتا الميلاد الشريف، أو أن جبريل ختنه حين طهر قلبه، أو أنه صلى الله عليه وسلم خرَّ جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، أو ما يذكر من أن إيوان كسرى ارتجس ونار فارس خمدت، وبحيرة

---

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ للإمام السهيلى، ج ١ ، ص ١٨٧.

(٢) الشفاء بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء ، وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصوراً.

ساوة غاضت.. إلـخ، ففى كثير مـنها غرائب ومناكيـر.. وكان الإمام ابن كثـير عقب رواية هذه الآثار يقول مثلا[1]:

ـ فى صحتها نظر..!!

ـ وهذا غريب جداً..!!

ـ لكن فلاناً هذا متـروك كذاب متهم بالوضع، فلهـذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يُفرح به..!!

ـ هذا الحديث لا أصل له فى شىء من كتب الإسـلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلا..!!

حتى الإمام ابن إسحق يسوق عبارة الزعم ـ ومعروف أن (زعم) مطية الكذب ـ فيقول مثلا:

ويزعمون ـ فـيما يتحـدث الناس والله أعلم ـ أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله صلى الله عليـه وسلم كانت تحـدث: أنها أُتيت حـين حملت برسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: إنك قد حمـلت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى أُعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سمـيه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام.

ونحن لا ننكرأن للمرأة الحامل أوضـاعاً نفسية تجعلها تتطلـع إلى المستقبل فى محاولة لاستقراء الغيب..

ونحن لا نشك أن لسيـدنا محمـد صلى الله عليه وسلم إرهاصـات فى حمله وولادته ونشأته، أهمها حفظ الله تعالى الكعبة المشرفة من هجمة الأحباش..

ونحن لا نريد أن نتكلم رجماً بالغيب أو نتتـبع قصص الوضَّاعين والمجهولين والمتروكـين، ويجب أن نفرِّق بين إمكـان الشىء ووقوعه، فكل شىء ممـكن فى قدرة العلى الأعلى، لكن السؤال المطروح هو: هل وقع ذلك أم لا؟!

إن من أغرب الخيال ما ساقه أبو نعيم منسوباً إلى ابن عباس:

---

(١) راجع البداية والنهاية، ج ٢، ٢٦٢ : ٢٧٧.

«فكان من دلالات حمل النبى صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت: حُمِل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، وهو أمان الدنيا وسراج أهلها.

ولم يبق كاهنة من قريش ولا قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبتها وانتزع علم الكهانة.

ولم يكن سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، والملك مخرساً لا ينطق يومه ذلك.

ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك البحار يبشر بعضهم بعضاً به.

وفى كل شهر من شهوره نداء فى الأرض ونداء فى السماء أن أبشروا فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً».

ثم تستطرد تلك الرواية المزعومة فتصف لحظة المخاض وما صحبها من طيور أقبلت، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من اليواقيت، وكشف عن بصر آمنة الحجاب فرأت مشارق الأرض ومغاربها، ثم تقول: رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيته، فغيب عن وجهى، فسمعت منادياً ينادى، يقول: طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شرق الأرض وغربها، وأدخلوه البحار كلها ليعرفوه باسمه ونعته وصورته.. ويعلموا أنه سمى فيها الماحى، لا يبقى شىء من الشرك إلا مُحِى به فى زمنه.

ثم تجلت عنه فى أسرع وقت فإذا به مدرج فى ثوب صوف أبيض أشد بياضاً من اللبن، وتحته حريرة خضراء، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض، وإذا قائل يقول: قبض محمد على مفاتيح النصر، ومفاتيح الذبح، ومفاتيح النبوّة[1].

إن هذه الرواية أشبه بالأدب الرمزى، ونكاد نقطع أن السيدة آمنة لم نقلها وأن ابن عباس لم ينقلها.

وأين كان ابن عباس يوم الميلاد الشريف؟.

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهانى ، ص ٢٢١.

إن هذه الأحداث كانت قبل وجود ابن عباس بما يزيد على الخمسين عاماً. وهل سمع أحد نطق كل دابة لقريش؟

وإذا لم يكن سمعها أحد فما قيمة هذا النطق؟

وإذا سمعها أحد فمن هو؟

وهل هذا الحدث ـ من السهولة ـ حتى لا يتناقله الناس ويتواتر؟!

إن قدر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومكانته رفيعة وليس فى حاجة إلى أوهام ننسجها حول ميلاده الشريف..

وإن لدينا من الحق والصدق ما يزيدنا إيماناً على إيمان، وإن أعلام نبوّته صلى الله عليه وسلم أظهر من الشمس فى رابعة النهار..

ويكفينا فى ميلاده الشريف أن نتأمل العبرة الكبرى:

لقد ولد محمد يتيماً فآواه الله..

ونشأ دون أب يرعاه فأدبه ربه..

وتلقفته أيد كثيرة من شأنها أن تورث شتاتاً فى الفكر والسلوك، ولكن الله تعالى أراد أن يصنعه على عينه وأن تتمحض العناية الإلهية فى كفالة هذا اليتيم، فيستقيم له الفكر والسلوك فكان الصادق الأمين فى الجاهلية، وكان خلقه القرآن فى الإسلام.

ثم إن هناك تأملا آخر، فالعادة جارية بأن اليتيم الذى تتلقفه أيد كثيرة وتتعدد عليه الولايات، لا يخفى من أمره شىء، وتظهر أخلاقياته وتتضح سلوكياته فلا شىء مستور منها..

ومحمد ﷺ وهو اليتيم الذى كفله أكثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت وتعدّد كافلوه ـ ما وُجد فيه عيب وما ظهر منه نقص، وما عُرف عنه مطعن، ولا أخذ عليه مأخذ، وإنما كان الطاهر النزيه، والصادق الأمين، والعفيف الزاكى.. إنها كفالة الله.. وعناية المولى.. وتدبير الحكيم العليم..

ولعل نظرة فى حياة الأنبياء ترينا أن أصحاب الرسالات الكبرى نشأوا فى غير كفالة أب، وتباعدوا عن جو الأسرة الحانية، وذلك لحكمة بالغة.

فإسماعيل عليه السلام ألقى به فى وادٍ غير ذى زرع، وجاء فى بعض الروايات:

(ثم قَفَّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس؟!.

فقالت: آلله أمرك بهذا؟! قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا..).

ويوسف عليه السلام ألقاه إخوته فى الجب والتقطه بعض السيارة وبيع لعزيز مصر، ثم دخل السجن، ثم خرج منه أمينا على خزائن الأرض، واستخلصه الملك لنفسه..

وموسى عليه السلام ألقت به أمه فى اليم والتقطه آل فرعون، وتربَّى فى قصر فرعون، ولبث فيه السنين الطوال..

وعيسى عليه السلام أتت به مريم قومها دون أن يمسها بشر ودون أن يقوم على أمر رعايته والد..

إن هؤلاء جميعاً كانوا أنبياء وتحملوا رسالة الوحى الإلهى.

«وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»(١).

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»(٢).

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ»(٣).

(١) سورة مريم الآيتان ٥٤ و ٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآيتان ٥٦ و ٥٧.

(٣) سورة طه، الآيات ١١ ـ ١٣.

«إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ..»(١).

إن حكمة بالغة هنا تشدّ عقل الإنسان إلى آفاق عليا من التأمل..

فالأسباب المادية التى تعارف الناس عليها ليست هى كل شىء..

إن وراء كل ظاهرة فى الطبيعة والإنسان تدبيراً إلهيا محكماً..

وإن عقل الإنسان فى إدراكه لقضايا الحياة قاصر عن الإحاطة والاستيعاب..

إن الحقيقة الكبرى التى يجب أن تكون فلسفة الإنسان فى حياته كلها هى ما عبر عنه القرآن العظيم فى قوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً»(٢).

* * *

(١) سورة آل عمران، الآيتان ٤٥ و ٤٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٥٨.

راعى الغنم

ورث سيدنا محمد ﷺ عن أبيه خمسة من الإبل ، وقطيعاً من الغنم ، وجارية هى أم أيمن[1]..

وتلك ثروة ـ فى عرف زمانها ـ ضئيلة، إلا أن الله تعالى هيأ له الأسباب وعمل سيدنا محمد فى رعى الغنم، فقد رعاها وهو صبى فى بنى سعد، ورعاها وهو شاب فى مكة، وكان يذكر ذلك مغتبطاً، فالعمل شرف، واكتساب الرزق فريضة..

وفى رواية البخارى قال عليه الصلاة والسلام: (ما بعث الله نبيا إلا وقد رعى الغنم). فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله ؟

قال : (وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط)[2].

ولعلّ لله حكمة فى رعى الغنم، فهو يكسب صاحبه يقظة حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاقّ، مثابراً على الهدف، كى يوفر لغنمه مآكلها ومشاربها..

ثم إن الرعى بعد ذلك يدع للراعى فرصة للتأمل فى مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس فى امتداد الصحراء يلحظ غنمه..

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً فى هذا التاريخ ..

فإسماعيل عليه السلام ترتبط قصة حياته بكبش أنزله الله فداءً له وتصديقاً لرؤيا أبيه..

«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»[3].

وموسى عليه السلام، وهو فى الوادى المقدس، حال المفاجأة الكبرى، جرى هذا الحوار:

---

(١) أعتقها الرسول فيما بعد ، وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة.

(٢) القراريط: أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج اليسيرة.

(٣) سورة الصافات ، الآيات ١٠٣ ـ ١٠٧

«وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ؟ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ»(١).

ولما ائتمر القوم بموسى وتوجه تلقاء مدين وقعت أحداث كان للغنم فيها نصيب، فقد سقى للمرأتين ثم دُعى إلى بيت أبيهما الشيخ الكبير، وانتهى الأمر بالزواج من إحداهما، وظل مع أبيها عشر سنين يرعى له الغنم: «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ»(٢).

وداود عليه السلام تسور عليه الخصمان مكان عبادته ليحكم بينهما فى شركة: لأحدهما تسع وتسعون نعجة وللآخر نعجة واحدة، وأراد صاحب النصيب الكبير أن يستأثر بالشركة كلها لنفسه، فحكم داود وعدل وبين عبرة الحياة:

«قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ»(٣).

وأشار القرآن إلى قصة نزاع بسبب الغنم تحاكم فيها أصحابها إلى داود وسليمان عليهما السلام، فحكم سليمان وهو صغير بحكم غير حكم أبيه، وكان حكم سليمان أرفق:

«وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا..»(٤).

قال أكثر أهل العلم: (إن الحرث الذى حكم فيه سليمان وداود ـ إذ نفشت فيه غنم القوم ـ بستان عنب.

---

(١) سورة طه، الآيتان ١٧ و ١٨.

(٢) سورة القصص، الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

(٣) سورة ص، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

والنفش: رعى الغنم ليلا خاصة.

وقيل: كان الحرث المذكور زرعاً.

وذكروا أن داود حكم بدفع الغنم لأهل الحرث عوضاً عن حرثهم الذى نفشت فيه فأكلته.

وقال بعض أهل العلم: اعتبر قيمة الحرث فوجد الغنم بقدر القيمة فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ورضوا بدفعها ورضى أولئك بأخذها بدلا من القيمة.

وأما سليمان فحكم بالضمان على أصحاب الغنم وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان حين نفشت فيه غنمهم، ولم يضيع عليهم غلته من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير مافاتهم من نماء حرثهم ، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء..

قالوا: وهذا هو العلم الذى خصَّه الله به وأثنى عليه بإدراكه.. هكذا يقولون والله تعالى أعلم)[1].

لقد كان للرعى دور أساسى فى التاريخ الإنسانى، ولا زال للأنعام ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان.. وصدق الله حيث يقول:

«أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ»[2].

والأنبياء ما هم إلا بشر يعيشون مجتمعهم بكل معالمه الإنسانية، ولعل فى رعى الغنم توطئة لرعى الخلق وسياستهم..

ولم يكتف سيدنا محمد ﷺ برعى الغنم، بل ذهب فى شبابه المبكر مع عمه أبى طالب فى تجارة إلى الشام..

---

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ العلامة محمد الأمين الشنقيطى ، ج ٤ ص ٦٦٩.

(٢) سورة يس ، الآيات ٧١ ـ ٧٣.

وفى مرحلة شبابه المتأخر تسامعت به السيدة خديجة بنت خويلد فعرضت عليه أن يخرج لها فى تجارة إلى الشام، لما بلغها عنه من صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق.

فبارك الله فى هذا المال وربحت التجارة ربحاً كبيراً..

ومن هنا حرصت السيدة خديجة ـ وهى ذات الشرف والنسب ـ على أن تقترن بهذا الرجل الأمين، ليحفظ لها أموالها ويصون ثروتها وتسكن إليه فى وحدتها، فهى الثيب الأرملة بعد زوجيها أبى هالة بن زرارة، وعتيق بن عائذ..

وتحكى الروايات أن سيدنا محمداً أصدقها عشرين بكرة..

وعاش معها صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة وفياً أميناً، ورزقه الله منها البنين والبنات، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى رغم فارق السن بينهما وظلت حبه الأول والكبير حياته كلها..

تقول السيدة عائشة ـ كما فى الصحيح ـ:

(ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبعثها فى صدائق خديجة).

وعندما يكثر الرسول من ذكر خديجة تقول له عائشة: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[1]! فأبدلك الله خيراً منها..!؟

فيقول الرسول الأمين ﷺ :

والله ما أبدلنى الله خيراً منها.. آمنت بى إذ كفر الناس.. وصدقتنى إذ كذبنى الناس.. وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس.. ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء).

إن الدرس الذى يجب أن نعيه تماماً من هذا الجانب فى حياته ﷺ أن زخرف الدنيا ومتاعها لم يكن هدفاً لسيدنا محمد يحرص عليه، ولا غاية يسعى إليها.

وعاش ﷺ قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع المادية، ويتعالى فوق كل إغراء..

---

(١) سقطت أسنانها.

وعندما عرض المشركون عرضاً سخيا على رسول الله وقالوا:

إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ـ فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال عليه الصلاة والسلام: (ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم.. ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً.. فبلّغت رسالات ربى ونصحت لكم.. فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

لقد عاش سيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى فى السمو على متاع الحياة فى خاصة نفسه وأهل بيته، وها هى ذى السيدة عائشة تحدثنا عن طعام بيت النبوّة فتقول ـ كما فى صحيح البخارى ـ:

(إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار..!!

فسألها ابن أختها عروة بن الزبير: يا خالة ما كان يُعيشكم؟!.

قالت: الأسودان: التمر والماء..).

وعندما سُئلت السيدة عائشة: ما كان فراش رسول الله فى بيتك؟!

قالت ـ كما رواه الترمذى ـ: من أدم [1] حشوه ليف..

وسئلت حفصة بنت عمر نفس السؤال فقالت: (مسْحاً[2] نثنيه ثنْيتين فينام عليه؛ فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته بأربع كان أوطأ له، فثنيناه بأربع ثنيات.

---

(١) الأدم ـ بالفتح ـ باطن الجلد الذى يلى اللحم.

(٢) كساء غليظ.

فلما أصبح قال: ما فرشتم لى الليلة؟!. قالت: هو فراشك، إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات، قلنا هو أوطأ لك.

فقال عليه الصلاة والسلام: ردوه لحالته الأولى فإنه منعتنى وطأته صلاتى الليلة).

وكيف كانت بيوت أزواج النبى؟.

هل كانت ناطحات سحاب، أو قصوراً ضخمة ذات أفنية، أو بيوتاً من زخرف فيها الأرائك والمعارج؟!.

لقد أخرج ابن سعد أن عطاء الخرسانى قال فى الروضة الشريفة: أدركت حُجَر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المسوح من شعر أسود.

فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ، يأمر بإدخال حجر أزواج النبى فى مسجد رسول الله، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم..

قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئ أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله فى حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فى الدنيا.

وقال يومئذ أبو أُمامة: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصُرَ الناس عن البناء، ويروا ما رضى الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده..!!

ويوم أحسّ نساء النبى صلى الله عليه وسلم أن الدنيا قد فتحت على المسلمين وأن الغنائم تكاثرت فى أيديهم ـ سألن رسول الله مزيداً من النفقة ومزيداً من متع الحياة، وألححن فى السؤال حتى شقّ ذلك على النبى فاعتزلهن شهراً من شدة غضبه عليهن، وشاع بين المسلمين أن الرسول طلّق نساءه..

هنا نزلت آية التخيير لأمهات المؤمنين: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا»(١).

وكلهنَّ اخترن الله ورسوله..

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

هذا الثبات على الحق.. وهذا المنهج الذى لم يتغير فى الزهد والإقبال على الآخرة.. وهذا العزوف الكامل عن متع الحياة الرخيصة.. ألا يؤكد الحقيقة الكبرى، أنه يبلِّغ رسالة ربه ويبتغى وجه الله والدار الآخرة..؟!

وحين عاند المشركون واستهزءوا وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟!.

وأرادوه ملَكاً رسولا أو ملِكاً مترفاً، لم يعبأ القرآن بهذا الموقف وصحَّح لهم مفاهيم النبوة فقال:

«انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً»(١).

* * *

(١) سورة الفرقان، الآيات ٩ ـ ١١.

الصادق الأمين

قال ابن إسحاق :

(فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا.. أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة...)[1].

وشواهد ذلك من حياة المصطفى كثيرة..

فقد جاء فى صحيح الحديث أنه ﷺ حين جدّدت قريش بناء الكعبة المشرفة (كان ينقل الحجارة مع قومه.. وكانوا يحملون أزرهم[2] على عواتقهم لتقيهم الحجارة، وكان رسول الله يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه.. فقال له العباس: يا ابن أخى لو جعلت إزارك على عاتقك؟!. ففعل، فسقط مغشياً عليه، ثم قال: إزارى، إزارى. فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة).

وفى ذلك حرص على ستر العورة وطهارة العرض..

وعندما بلغ بنيان الكعبة موضع الحجر الأسود اختصمت قبائل قريش فيمن يحوز شرف وضعه فى مكانه، وكادوا يقتتلون لولا أن الوليد بن المغيرة قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم.

وشاء الله أن يكون محمد بن عبد الله أول داخل عليهم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين.. رضينا، هذا محمد..

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: (هلم إلىَّ ثوبا...).

فأتى به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعا.. ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكانه وضعه هو بيده الشريفة..

وهكذا حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ببركة سيدنا محمد وحكمة عقله..

---

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ للإمام السهيلى، ج ١ ، ص٢٠٧.

(٢) جمع إزار وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

ومع أن محمد بن عبد الله ﷺ عاش فى مجتمع فيه النقائص والتناقضات العقدية والأخلاقية، إلا أن عصمة الله له ظاهرة جلية، فلم يشارك فى لهو، ولم يسجد لصنم..

واخترع الوهم الجاهلى فى دين الله، وابتدع الحمس [1] أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، زاعمين أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه، وحرموا على الناس المآكل والمشارب التى تأتى من خارج الحرم، وصنعوا ثياباً خاصة لمن يطوف بالبيت، فمن لم يجدها طاف عرياناً..

ولكن سيدنا محمداً وفقه الله وألهمه، فيقول جبير بن مطعم: (ولقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً من الله له)[2].

وشأن الحياة أن لا تتمحض للشر أو للخير، فقد وجد فى المجتمع الجاهلى بقايا قيم وخير ومعروف..

ويحكى أن رجلا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، فحبس عنه حقه، وحاول الرجل أن يستخلصه، فأعيته الحيل، فرقى جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر، لمظلوم بضاعته	ببطن مكة، نائى الدار والنفر
ومُحرم أشعث لم يقض عمرته	يا للرجال، وبين الحِجْر والحجَر[3]
إن الحرام[4] لمن تمت مكارمه	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام إليه الزبير بن عبد المطلب، وعبد الله بن جدعان، واجتمعوا ـ بنو هاشم وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة ـ فى دار عبد الله، وتحالفوا فى ذى القعدة قبيل البعثة بعشرين سنة، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه.

(١) جماعة من المتشددين ، والتحمس التشدد ، والمفرد أحمس بفتح الميم

(٢) الروض الأنف ، جـ ١ ، ص ٢٢٣.

(٣)الحجر بكسر فسكون ـ جزء من الكعبة لم تستطع قريش إكمال بنائه، والحجر بفتح الأول والثانى هو الحجر الأسود

(٤) الحرام بمعنى الاحترام.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الرجل ودفعوها إليه، ولقد شهد هذا الحلف سيدنا محمد ﷺ وقال عنه بعد البعثة: لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت).

فنصرة المظلوم قيمة إنسانية كبرى..

والإسلام يؤازر الحق وأهله ويجيب نداء المستغيث..

فالحق عرض الله والعدل شريعته..

وقد اختار سيدنا محمد الخلوة بغار حراء اعتزالا لباطل قومه، وفكراً وتأملا فى ملكوت السموات والأرض، ونظراً إلى الكعبة المشرفة من قمة جبل النور..

وهو فى خلوته هذه لم ينس واجب المواساة للضعفاء وذوى الحاجات، فكان يطعم من جاءه من المساكين، وكلما فرغ زاده عاد إلى بيته ليتزود، وجاء فى صحيح البخارى بسنده عن عائشة قالت:

(أول ما بدىء به ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء...).

ويروى ابن إسحق: (أن رسول الله ﷺ كان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره[1] الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته...).

وهنا مجموعة ملاحظات:

أولا: هذا الشهر الذى اختاره الرسول الكريم للتعبد هو شهر رمضان كله أو معظمه، لأن الوحى تنزل فى شهر رمضان والرسول كعادته فى خلوته..

(١) الجوار ـ بالكسر ـ فى معنى المجاورة وهى الاعتكاف، إلا أن الاعتكاف مختص بالمسجد، والجوار قد يكون خارج المسجد، ولذا لا يسمى جواره صلى الله عليه وسلم اعتكافاً لأن حراء ليس بمسجد ولكنه من جبال الحرم.

قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»[1].

وتكون الليالى ذوات العدد التى ذكرت فى حديث السيدة عائشة تعنى فترة بقاء الزاد فقط، أى أنه يحمل زاده لعدة ليال، فإذا نفد عاد فتزود لمثلها، إذ لم يتوافر لديهم وسائل لحفظ الطعام مدة طويلة، أو ربما نفد الزاد لإطعامه المساكين..

ثانياً: ما الذى دفع المساكين أن يذهبوا إلى غار حراء؟!.

وهل اختيار غار حراء للخلوة مختص برسول الله؟!.

بالتأمل قليلا نجد أن ذهاب المساكين إلى الغار ينم على أن ذلك المكان مقصود للحنفاء وأصحاب التأملات، ولمن يريد أن ينقطع عن المألوف من مظاهر مجتمعه..

قال الإمام الحلبى:

(وعن عبيد بن عمير رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء، فى كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية). أى المتألهين منهم، وكان أول من تحنث فيه من قريش جده ﷺ عبد المطلب، فقد قال ابن الأثير: أول من تحنث بحراء عبد المطلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين، ثم تبعه على ذلك من كان يتألَّه ـ أى يتعبَّد ـ كورقة بن نوفل، وأبى أمية بن المغيرة)[2].

ثالثاً: إن غار حراء هو كهف فى قمة جبل، بينه وبين مكة ثلاثة أميال، عن يسار الذاهب إلى منى.

والكهف من حيث الموقع الجغرافى والتكوين الجيولوجى مكان ملائم لإثارة خيال الإنسان وقوى التأمل فيه، وعلى مدى العصور كان الكهف ملجأ للإنسان من غوائل الطبيعة، كما كان رمزاً للرفض الفردى لأوضاع اجتماعية ونظم سياسية.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ـ الشهير بالسيرة الحلبية ـ تأليف على بن برهان الدين الحلبى، ج ١، ص ٣٨٢.

ويحدثنا التاريخ عن قصة أصحاب الكهف التى حكاها القرآن، وهم فتية آمنوا بربهم وآثروا الفرار بدينهم من بطش قومهم وجبروت حكامهم فآوَوْا إلى الكهف ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

رابعاً: تساءل بعض الباحثين:

على أى دين تعبد سيدنا محمد قبل البعثة؟

وذهبوا مذاهب شتى، فقيل: على شرع نوح، وقيل: على ملة إبراهيم، وقيل: على دين موسى أو عيسى عليهم السلام..

ونحن نرى أن هذه الاتجاهات لا دليل عليها، فلم يثبت أن سيدنا محمداً بحث عن الشرائع أو قرأ فى الكتب أو تعلم من راهب..

قال تعالى: «مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ»(١).

ولم يذكر التاريخ أن سيدنا محمداً شارك الحنفاء الذين التمسوا لأنفسهم أديان أهل الكتاب، وتفرقوا فى البلاد يبحثون عن دين صحيح..

والأوفق أنه ﷺ تعبد قبل النبوة بالتأمل والفكر، والانقطاع والخلوة، والصلة والبر.. كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

وهذا هو ما تؤكده الروايات الصحيحة عن السيدة عائشة فى حديث بدء الوحى.

واشتهر ﷺ بأنه الصادق الأمين، وتفرد بهذه الشهرة؛ ولقد كان الصدق والأمانة هما العَلَمَ المرفوع من أعلام النبوَّة منذ يومها الأول، فعن ابن عباس رضى الله عنهما ـ كما فى الصحيح ـ قال: لما نزلت هذه الآية: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»(٢) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه..!!

فقالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد

فاجتمعوا إليه، فقال: يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد المطلب.

فاجتمعوا إليه.. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقىَّ؟!.

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

قالوا: ما جربنا عليك كذباً..

قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا..!؟

ثم قام فنزلت هذه السورة: «تبت يدا أبى لهب وتب...».

انظر معى إلى براعة الاستهلال، ولباقة العرض، وبلاغة الحوار، وتأمل معى كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه..!!

فإن المنطق السليم يقول: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!

إن شخصية سيدنا محمد، وعظم أخلاقه، ونبل سلوكه، وكرم معاشرته، كانت أهم العوامل الرئيسية فى نجاح دعوته.

وإن الذين أسلموا فى أوائل العهد المكى لم يكن يجذبهم لهذا الدين الجديد إلا يقينهم الكامل بصدق صاحب الدعوة.

فأول الناس إيماناً على الإطلاق خديجة بنت خويلد، حاضنة الإسلام، فعندما فَجَأَهُ الحق فى غار حراء، ورجع إلى زوجه يقص عليها ما حدث، قالت فى ثقة كاملة:

(أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً.. والله إنك لتصل الرحم.. وتصدق الحديث.. وتحمل الكل.. وتكسب المعدوم.. وتقرى الضيف.. وتعين على نوائب الحق..).

ثم كان أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، صاحب الرسول قبل البعثة، ودخل معه وخرج، وعرف سريرته وعلانيته، فلم يتردد لحظة يوم دعاه إلى الإسلام..

وقال عنه ﷺ: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكم[1] عنه حين ذكرته، ولا تردد فيه).. رواه ابن إسحق.

ولم يكتف أبو بكر بإسلامه، بل أخذ يدعو إلى الله، فأسلم على يديه كثير من السابقين إلى الإسلام..

---

(١) عكم : تلبث.

إن الصدق هو المعجزة الأولى التى دفعت النـاس إلى الإيمان بالرسالة لسيدنا محمد ﷺ، فالقرآن ـ وهو المعجزة الكبرى ـ كان فى بداية الشروق، ومازال يتنزل نجوماً، والقدر المنزل يومئذ كان آيات متـفرقات من سور العلق والقدر والمدثر والمزمل.. ولـم يتلفت الناس إليـها بعـد، وخوارق العادات التى امتن اللـه بها على رسوله لـم تظهر وقتها..

وظل الصدق فى سويداء قلب المجتمع المكِّىِّ لا يتزلزل اليقين به لسيدنا محمد حـتى مع كـفـرهم بالرسـالة.. وتـدور الأيام ويخـرج الرسـول مـهـاجـراً إلى المدينة ويستخلف علياً فى فراشه ليـوارى عنه أعين المشركين المؤتمرين به، وليرد عنه الودائع التى ائتمن أهل مـكة الرسول عليهـا، فلم يكن بمكة أحد عنده شىء يخـشى عليه إلا استودعه عند الصادق الأمين..

ومع أن المسلمين خـرجوا من مكة، وتركوا ديارهم وأموالهم بـغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فقد حرص الصادق الأمين على رد الودائع إلى أصحابها المشركين.

أليس هذا هو الخلق العظيم؟!.

* * *

الأمـــى

العرب أُمةأُمية لم تعتمد على الكتاب كثيراً، ومنحها الله موهبة عقلية وذهنية تمثلت فى ملكة الحفظ، فتناقلوا أشعارهم وأيامهم، وأجادوا فى ضبط أنسابهم وذرياتهم.

وغلب عليهم هذا الوصف، فعرفوا به بين الأمم. قال تعالى عن اليهود وعلى لسانهم: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(١).

واستعمل القرآن هذا اللفظ فى وصف العرب فقال: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ»(٢).

ويشاء الله أن ينشأ سيدنا محمد من هذه الأمة ويشاكل عامتها فى عدم القراءة والكتابة، فلم يجلس إلى معلم ولم يقرأ فى كتاب..

وذات يوم حدث الرسول أصحابه عن الشهر القمرى، وبين لهم أنه لا يزيد عن ثلاثين ليلة ولا ينقص عن تسع وعشرين، فقال لهم ـ كما فى الصحيح عن ابن عمر ـ: (إنا أُمة أُمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام فى الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعنى تمام الثلاثين).

والمراد بهكذا الإشارة بأصابع يديه العشرة.

وقد سجل القرآن العظيم أن هذا الوصف لسيدنا محمد مدوَّن فى الكتب السابقة، فقال: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ»(٣).

ولفت القرآن المجيد أنظار العرب إلى واقعية الحياة التى عاشها سيدنا محمد قبل الرسالة، فلم تكن تنبئ بعمق دراسة ولا حرص على تغيير.. ومكث ﷺ أربعين

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧٥.

(٢) سورة الجمعة ، الآية ٢.

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧.

سنة قبل الوحى إليه، هادئاً ساكناً، وديعاً لا يندُّ عن مألوف قومه، اللهم إلا فى اشتهاره بالصدق والأمانة..

قال تعالى: «قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ»(١).

ولحكمة ما عندما فجأ الوحى سيدنا محمداً كان الأمر الإلهى الأول: اقرأ، وكان الجواب التلقائى السريع: ما أنا بقارئ..!!

إن الحكمة الإلهية الكبرى تكمن فى أن هذا الوصف ملاحظ فى صدق الرسالة وحقيقة الوحى إلى سيدنا محمد ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الملاحظة فى تأكيد الإعجاز القرآنى الدال على تصديق الله لعبده محمد فى دعوى الرسالة، فقال: «وما كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ»(٢).

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ترتبط بشخص رسولها وقت ظهورها، ولا تعلم إلا لمن شاهدها أو نقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهى معجزة عقلية ذاتية تحمل الدليل معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن، ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمداً أُمِّىّ، وأن القرآن سجد له البلغاء والفصحاء، وتتلمذ عليه العلماء والفلاسفة، وأصلح شئون الحياة بكاملها، وبنى حضارة إنسانية، يتزايد عمق إيمانه ويقينه بأن محمداً رسول الله.

قال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»(٣).

ونقل الإمام الرازى عن أهل التحقيق أن كونه ﷺ أمياً بهذا المعنى من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه:

---

(١) سورة يونس، الآية ١٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٤٨ و٤٩.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥٢.

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لابد وأن يزيد فيها أو ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ؛ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ»(١).

الثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين، فحصَّل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم، والمشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات.

وهذا هو المراد من قوله تعالى: «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(٢).

الثالث: إن تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم.

ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر.

ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلائق عقلا وفهماً.

فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدَّين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وجارٍ مجرى المعجزات(٣).

هذا ولم يثبت أن سيدنا محمداً ﷺ خرج من مكة وغاب عنها غيبة طويلة تمكنه من التعلم، وكل ما ورد في كتب السيرة أنه ﷺ خرج مرتين إلى الشام:

---

(١) سورة الأعلى، الآية ٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٣) التفسير الكبير للإمام الرازي، ج ١٥، ص ٢٥، طبعة دار الفكر - بيروت سنة ١٤٠١ هجرية.

الأولى: مع عمه أبى طالب، وكانت سنّه حينئذ تقارب الثانية عشرة، وتفيد الروايات أنه التقى براهب يسمى (بحيرا)، وأن الراهب أخذ يستفسر منه عن أحواله فى نومه وهيئته، وتساءل مع عمه عن نشأته وأبيه، وتفحص شئونه، فأدرك أن لهذا الغلام شأناً، وأفضى بذلك إلى عمه أبى طالب، ونصحه بالعودة به إلى مكة.

الثانية: مع ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد فى تجارة لها، وسنه يؤمئذ خمس وعشرون، ونزل سيدنا محمد للراحة فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له: (نسطورا)، وتبين هذا الراهب ـ بفراسته ـ شيئاً من تكريم الله لهذا الشاب فأفصح عنه لميسرة قائلا: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى..!!

يريد تأكيد أن هذا الشاب الذى يجلس الآن تحت هذه الشجرة سيكون النبى المنتظر لدى أهل الكتاب..

ويعود سيدنا محمد إلى مكة، ويخوض معمعة الحياة، ويتزوج السيدة خديجة، وتشغله شئون الأسرة، ويتحمل أعباء تكاليفها.. ثم يفجؤه الوحى بعد ثلاثين سنة تقريباً من اللقاء بالراهب الأول وخمسة عشر عاماً من اللقاء بالراهب الثانى..

إن كل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه ﷺ ما توقع رسالة ووحياً، ولا أعد نفسه لزعامة وسلطة، ولا عرف عنه انفعال وثورة.

وكل الإرهاصات التى أحاطت بمولده الشريف أو بنشأته الطاهرة لم تأخذ مجراها التأثيرى البين على واقع حياته المباركة، وإنما كانت طوالع عامة لم يعرها سيدنا محمد الاهتمام البالغ الذى يجعله يسترق السمع أو ينتظر المستقبل أو يعيش على أحلام اليقظة..

ويشاء الله أن عمه أبا طالب الذى صاحبه فى رحلة الشام الأولى لم يُسْلم يوم دعا رسول الله إلى الدين الجديد، فلو أن المسألة معدة أو فيها شىء من الترتيب البشرى أو دخلها التصنع لكان أبو طالب أول المؤمنين، ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون أبو طالب أول المدافعين عن الرسالة رغم شركه الذى أصر عليه.

* * *

كلمة تنبيه

إن اليتم والفقر والأمية لا شك أنها ـ فى مجموعها ـ قادحة فى شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها فى نطاق الإعداد للنبوَّة والاصطفاء للرسالة تضعنا فى نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أُمية مدعياً أن الرسول كان كذلك.

لقد سبقت كلمة الله جل جلاله أن أجل الإنسان إذا حان لا يؤجِّله طب ولا تردُّه قوة، واقتضت حكمته سبحانه أن يتكافل الناس ويتعاونوا وبذلك جرى الطبع السليم وأوجب الدين الحنيف، فكان الإحسان إلى الضعيف وكفالة اليتم ورعاية المريض فى شرع الله ديناً، وبين الناس خلقاً كريماً..

واليتم فى اللغة هو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة أى الفريدة التى لا مثيل لها..

واليتامى هم الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم..

وقيل: اليتيم من الناس من فقد أباه، ومن البهائم ما فقد أُمه.

وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار، إلا أن العرف خصَّه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فهو الذى يحتاج إلى كفالة من يقوم بأموره من نفقة وتأديب حتى يرشد ويستطيع أن يواجه الحياة بأعبائها، ولهذا ورد فى الأثر: (لا يُتْم بعد البلوغ)..

وقد جعل رسول الله ﷺ القائم على رعاية اليتيم قريباً له فى الجنة، فقال ـ كما فى الصحيح ـ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.

كما بين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عظم ثواب كفالة المحتاجين والسعى فى مصالحهم فقال: (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله).

قال أبو هريرة: وأحسبه قال: (وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر).

فانظر كيف جعل قضاء حوائج هؤلاء يعدل قمماً ثلاثاً من العمل الدينى السامى، وهى الجهاد فى سبيل الله، وصلاة الليل بغير انقطاع، وصيام الدهر بغير إفطار..

وهذا تأكيد نبوى كريم لأهمية أن يتكافل الناس، وأن يأخذ القوى بيد الضعيف، وأن يكونوا عباد الله إخواناً..

هذا وإن التماس الرزق والسعى له أمر واجب شرعاً، قال تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»(١).

وقد علّم الرسول ﷺ أصحابه أن أطيب الكسب عمل الرجل بيده، فقال ـ كما فى الصحيح ـ: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده).

وفى الصحيح أيضاً: (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى).

ونستطيع أن نقول مطمئنين: إن الفقر الذى ينشأ عن التكاسل وترك السعى مع القدرة عليه هو فقر معصية يحاسب عليه الإنسان أمام ربه، وإن الفقر الذى ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضاً فقر معصية يسأل عنه المرء يوم القيامة..

قال تعالى: «وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا»(٢).

وقد شدَّد الإسلام النهى عن المسألة والتسول، فقال النبى ﷺ ـ كما فى الصحيح ـ: (من سأل الناس أموالهم تكثُّراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر) أى أن مال التسوّل شؤم على صاحبه يتحوّل إلى جمر يكوى به يوم القيامة.

وفى حديث آخر صحيح: (لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم) أى قطعة لحم، ومعناه أنه يأتى يوم القيامة ذليلا لا كرامة له عند الله.

ولنتذكر هذا التنبيه الرائع من سيدنا رسول الله فى قوله: (ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: (الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً).

(١) سورة الملك، الآية ١٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٩.

وليكن معلوماً أن التسوّل ليس وقفاً على من يمد يديه فى الطرقات، بل أشد أنواعه التسول أمام الرؤساء وذوى السلطان، فإن الله قد نزع البركة منه، وليس الغنى عن كثرة العَرض، وإنما الغنى غنى النفس..

وذات يوم وقف الرسول ﷺ وقال لأصحابه: (إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشَرَهٍ كان كالذى يأكل ولا يشبع).

وقد تأدب الصحابة رضى الله عنهم بهذا الأدب النبوى الشريف، فكان عمر ابن الخطاب يعطى العطاء فيقول: أعطه يارسول الله أفقر إليه منِّى!!.

وكان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه..!!

وهذا النبى الأمى هو الذى جعل فداء بعض الأسرى من المشركين فى غزوة بدر الكبرى أن يعلِّم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين..

وهو الذى أشار على زيد بن ثابت أن يتعلَّم لغة أجنبية، وتحدث الروايات عن زيد أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: إنها تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية؟!

فقلت: نعم. فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة.

ويكفى أن أول آية فى القرآن المجيد نزولا، أمر بالقراءة، وإشارة إلى آفاق عليا فى علم الأجنة، وامتنان بالتعليم بالقلم..

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ..»(١).

واهتمام المسلمين بالمعرفة، وقيام حضارتهم على الفكر، وقرائح أذهانهم التى ضمنوها ملايين الكتب والمجلدات ـ أوضح من أن نتكلم فيها أو نعرض لها..

يقول الإمام الحلبى: (لا ينبغى لأحد عُيِّر برعاية الغنم أن يقول: كان النبى ﷺ يرعى الغنم، فإن قال ذلك أُدِّب، لأن ذلك ـ كما علمت ـ كمال فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم، فلا ينبغى الاحتجاج به.

ويجرى ذلك فى كل ما يكون كمالا فى حق النبى ﷺ دون غيره كالأمية.

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥